

على قسم لا أشتـم الـدـهـر مـسـلـمـا
ولا خـارـجاـ منـ فـي سـوـءـ كـلامـا
أـطـعـتـكـ يـاـ إـبـلـيـسـ سـبـعـينـ حـجـةـ،
فـلـمـاـ اـنـتـهـىـ شـيـ، وـتـمـ تـامـمـي
فـرـرـتـ إـلـىـ رـيـ، وـلـيـقـنـتـ أـنـسـي
مـلـاقـ لـأـيـامـ الـثـوـنـ حـمـاـيـ

وكانت الموعظة تبلغ مبلغها ، عندما يُبكي الموعوظ ، إلى درجة الغشيان :
-> دخل سابق البربرى على عمر بن عبد العزير ، فقال له : عَظَنِي يا ساِبُقُ وَأُوْجَزُ ، قال نعم يا أمير المؤمنين وأبلغ إِن شاء الله ، قال : هات . فأَشَدَهُ :
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحُلْ بِزَادِ مِنَ التَّقَوْيَى
ووافيت بعد الموت من قد ترودا
نَعْمَتْ عَلَى أَنْ لَا تَكُونْ شَرِكَه
وأَرْصَدْتَ قَبْلَ الْمَوْتِ مَا كَانَ أَرْصَدَنا
فَبَكَى عَمَرٌ حَتَّى سَقَطَ مَغْشِيَا عَلَيْهِ <(4)> .
وما يتصل بالشعر الديني أيضا ، الحكمة الدينية التي تعتمد على النظرية المتفحصة للحياة ؛ فالإنسان ماله إلى الزوال ، ومستقره دار أخرى . فَسَفِيمَ تکالبه على الدنيا ، واقتراضه الآتام ؟ !

رَبِّمَا غَرَّ سَفِيهَا أَمْ لَهُ
رَبٌّ مِنْ بَاتِ يُمْنِي نَفْسَهُ
حَالٌ مِنْ دُونِ مُنَاهٍ أَجْلُهُ
وَالْفَقِي الْمُخْتَالُ فِيمَا نَابَهُ
رَبِّمَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ حِيلُهُ
قُلْ لَمْ مُثَلٌ فِي أَشْعَارِهِ
يَهْلِكُ الْمَاء وَيَقِي، مُثَلُهُ

نافس المحسن في إحساناته

فسيكفيك سناء عما

: (6) قوله

أرى أشقياء الناس لا يسامونها

علي أهتم فيها عراة وجُوعٌ

فَإِنْ كَانَتِ الدِّيَنَا تُحَبُّ فَإِنَّهُ

سحابة صيف عن قليل تتشَّعُ

وإلى جانب هذا ، شارك الرجز في العصر الأموي شعر التدين موضوعاته كثيرا ؛ فقد تضمن الحكمة الدينية ، التي نحن بصددها ، وهي لا تخرج عن النظرة الدينية للحياة والموت .

قال الراجـز(7):

من عاش دهرا فسيأته الأجل

الموت يتلوه ويلهيه الأمل

: وقال أبو التجم العجلي (8) :

فلو ترى التيوس مضجعات

عرفت (٩) أنْ لسن بسالمات

أقوال إذ جئن مذبحات

ات (10) رانع قبل تکن من الم تکن

ما أقرب الموت من الحياة >> ولعل من الطريف أن تعرف أن بعض الرجال رأى أن يستهل بعض ما ينتهي من أرجوز بالحمد والثناء على الله ، بدلاً من الوقوف القسم بالأطلال والبكاء على السيارات ؛ فأبوا السجن العجلبي ينتهي أشهر أرجوزه بقوله :

الحمد لله الوهوب المجزل

في حين يتدلى العجاج أهم أراجيزه بقوله:

وَفِي دِيْوَانِه أَرْجُوزَةٌ يَفْتَحُهَا بِقُولٍ : ٤

الحمد لله الذي استقلت

يَا ذَنْهُ السَّمَاءُ وَاطْمَانَّتْ

ويستمر فيحدث عن خلق السماوات والأرض ، وما يكون منبعث والنشر ، ويتحول إلى ما يشبه **الراعض** <(11)> .

ولم تمض سنوات من القرن الثاني المجري ، حتى أخذت الحياة الروحية في الاستقرار والتعمق ؛ فبرز الحديث عن بعض المعانى الروحية . كما أخذت تأثيرات الأفكار الأجنبية في الظهور .

وقد رأينا ، قبل حين ، أن شعر التدين المرتبط بالوعظ والحكمة الدينية ، وقراءة عاشرة له ، كان صادق التعبير : لأنَّه يصدر عن عاطفة دينية راسخة ؛ الأمر الذي جعله يشطط ويتطور ، ويدأ في التردد على ألسنة العُباد والزَّهاد ؟ فقد مرَّ مالك بن دينار على رجل يغرس فسيلاً ، فغير عنه يسيراً ، ثمَّ مرَّ بالفسيل وقد أطعم ، فسأل عن الذي غرسه فقالوا : مات .

: (12) ول ثم أنشأ ية

مؤتمل دنيا لتبقى له

فمات المؤمل قبل الأمان

بِهِ فَسِيلًا وَيُعْزِّزُ

فعاش الفسيلُ وما ت الرجـل

وَسَيِّدُ سَفِيَانَ الشَّوَّرِيِّ،ْ ذَاتِ مَرَّةٍ،ْ عَنِ التَّقْوَىِ فَأَنْشَدَ (13):

ای وجدت فلا تظنو اغیره

هذا التوع عن هذا الترهـم

فِإِذَا قَلْرَتْ عَلَيْهِ شَمْ تُرْكَه

فأعلم بأن هناك تقوى المسلم

وفي الجملة ، فقد استحباب الشعر لمعان جديدة طرأ على الحياة الروحية ؟ فبعدما كانت مجرد تعبد
وعزوف عن الدنيا ، في القرن الأول ، صارت تعبداً مبالغ فيه ، وانصرافاً كلياً عنها وعن زخرفها . وكان هنا في
القرن الثاني .

إن هذه الحركة هي التي تسمى الزهد . وقد ارتبطت بالشعر ، فنشأ شعر الزهد : >> وهو طور جديد من أطوار شعر التدين ، يختلف عن طوره الأول في شدة توغله في الروحانية ، و Ashtonale على القومات الجدليات للحياة الروحية في القرن الثانـي <<(14)>> .

کان محمد پیر یوسف پیتمش اے، ہندا الیت:

إذا كت في دار الهوان فإنما

سچنک م، دارالعلوم اجتیابها (15)

وهو (أي البيت) دعوة صريحة إلى ترك الدنيا كليّة.

وَكَانَ سَفِيَانُ الثُّورَىٰ يَتَمَثَّلُ بَاخْرَ، وَهُوَ، (16) :

ياعو ا جديدا جملا باقا أيدا

پدادرس، خلق، یا پسر، ما آنچه و ا

ومن صور التصور في الشعر الديني عموماً، وفي شعر الزهد خصوصاً، صور المحاهلة. من ذلك ما روى من أن سعيد بن وهب الشاعر، المتوفى زمن المؤمنون، حجّ ماشياً، بعد توبته، فبلغ ذلك منه مبلغه، فقف على سطح الماء (17) :

قلمي، اعتدرا رمل الكشـب

واطراً قا الاجن من ماء القلبي

دُبَّ يَوْمَ رُحْتَمَا فِيهِ عَلَىٰ

زهرة الدنيا وفي واد خصيـب

وسماع حسن من حسن

صَخْبُ الْمَذْهَرِ كَالظَّبِي الرَّيْب

فاحسیبا ذاک بکذا و اصل

وخذدا من كل فن بصير——
 إنما أمشي لأنني مذهب——
 فعل الله يغفو عن ذنب——
 ومن طلاق العاليم الزهدية ، ما بخله لدى عبد الله بن المبارك (ت: 181هـ) ؛ فقد كان إذا خرج إلى
 مكة يقول (18) :
 بغض الحياة وخوف الله أخر جنبي
 ويع نفسي بما ليست له ثنا
 إني وزنت الذي يقى ليعدل——
 ما ليس يقى فلا والله ما أترنا
 بعض الحياة ، وخوف الله ، وميزان المقابلة بين الآجلة والعاجلة ، مع رجحان كفة الأولى ، كل أولئك
 من المعاني الزهدية التي نشأت عن شلة العلائق بالله ، والخوف منه ، وإثارة الآخرة على الدنيا .
 ومن المقطوعات الجميلة المؤثرة عن ابن المبارك كذلك ، ما قاله في بعض آداب وأخلاق المسلمين
 الصالح (19) :
 الصمت أزيز بالفتوى
 من منطق في غير حين——
 والصدق أجمل بالفتوى
 في القول عندي من يعين——
 وعلى الفتى بوقاره——
 سمة تلوح على جين——
 فمن الذي يخفى على——
 لك إذا نظرت إلى قربة——
 رب أمرى متى——
 غلب الشقاء على يقين——

فاز الله عن رأيه

فابتا ع دنیاہ بلین

وَمِنْهُ ظَاهِرَةً جَدَّتْ عَلَى الْحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ هِيَ ظَاهِرَةُ الْجَاهِنِينَ ، وَلَكِنَّهُمْ لَيْسُوا كَالْجَاهِنِينَ الْمُعْلَمُونَ عَلَيْهِمْ ، مِنَ الَّذِينَ لَا يَمْيِيزُونَ الْخَيْرَ مِنَ الْبَطَشِ ؛ إِنَّمَا جَاهِنِينَ مِنْ نَوْعِ خَالِصٍ ؛ يَنْطَقُونَ بِالْحُكْمَةِ ، وَتَرَدَّدُ عَلَى أَسْتِهِنَمِ الْمَوْعِظَةِ . وَعَنِي أَدْقَ ، فَإِنَّ جَهَنَّمَ حَنُونَ مَتَعَلِّمٌ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَلِنَلَكَ يُطْلَقُ عَلَيْهِمْ ، فِي مَوْلَفَاتِ طَلَقاتِ الْأَصْرُوفِيَّةِ . اسْمُ "عَقَلَاءُ الْجَاهِنِينَ" .

ومنهم "شعوانة" إحدى زاهدات القرن الثاني؛ كانت تردد هذا البيت (20) قبكي وبُنكى تتساڭ

معنی

لقد أمن المغورو دار مُقامه

وَيُوْشَكْ يَوْمًا أَنْ يَخَافُ كَمَا أَمِنَْ

ومنهم أيضاً "ميمونة السوداء" التي لقيها عبد الواحد بن زيد فأنشدته (21) :

اب لاحسان قام واعظا

بني جر قوماً عن الله وب

انت السقيم حقاً

هذا من المنكر العجيب

لوا کت اصلحت قبل هذا

غیّك أو بت من قریس

کان لماقتل یا حبیبی (22)

موقع صدق من القلب

نهي عن الغي والتمادي
وأنوث في الهي كالمربي بـ

: (23) وَمَا يُعْزِى لِي مِنْهُ هَذِهِ قَوْلَهَا

قلوب العارفين لها عيون

(24) ترى ما لا يراه الناظرون

وألسنة بسرّ قد تاج

ي

تغيب عن الكرام الكاتبين

وأجنحة تطير بغير ريش

إلى ملوك رب العالمين

فسقيها كؤوس الصدق فـ

ونشرب من كؤوس العارفين

ولا يخفى ما في هذه المقطوعة من نفحات صوفية ؛ وآية ذلك ما ورد في معجمها اللغوي أمثل : عيون قلوب العارفين ، والأجنحة التي تطير بغير ريش إلى الملوك الإلهي ، وكؤوس الصدق العamerة بالخمر المقدسة الصافية ..

ومن عقلاه الحانين كذلك "ريحانة": يروى عنها أنها قامت <> أول الليل وهي تقول :

قام المحب إلى المؤمن

كاد الفؤاد من السرور يطير

فلما كان جوف الليل سمعتها (أي الربع) تقول أيضا :

لأنسٍ من توحشك نظرت

كمْنَعَ من التذكار في الظلام

واجهد وكذا وكن في الليل ذا شجـ

يسقيك كأس وداد العز والكرم

.. ثم نادت : واحرباه وأسلبه . قلت (أي الربع) : مِمَّ ذا ؟ فقالت :

ذهب الظلام بأنسه وبألفـ

لبت الظلام بأسـه يتحـلـد <> (25).

ومنهم ، كذلك ، "هلول" (26) الذي كان يقول (27) :

أف للدنيا فليست لـي بدار

إنما الراحة في دار القـرار

وكان يقول أيضاً : >> من رزقه الله جمالاً وملاً فعفَ في جماله ، وانقى في ماله ، كُتبَ في ديوان الأبرار .
(28) <<

ومما رواه بعضهم عنهم (أي عقلاً الحماني) أنه رأى >> مجنوناً بالبصرة قد نظر إلى حنارة
قال :

وصف الطيب فَهُمْ بِهَا

وصف الطيب يعالجون

يرجون صحة جسمه

هيئاتٌ ما يرتجون

قال : ثم غلبه البكاء ومضى << (29) .

ومن المفيد أن نشير، نهاية، إلى طائفة أخرى من شعراء الرهد من القرن الثاني . يدأن هؤلاء لم ينصرفوا
عن الدنيا ولذاتها ، بل استهواهم مُعها ، وعكفوا ، في وقت ما ، على اجترار السينات ، وإثبات الآلام ما
صُرُّ منها وما كُبُر .. وعندهما شاحوا ، فترت أهواهُم ورغباتُهم ؛ ما جعلهم ينظرون إلى الحياة نظرة أخرى ، غير
التي كانوا ينظرونها من قبل . لقد وقفوا موقفاً التأمل المتأنّى المستدرك لحسناه التي ضاعت منه في مرحلة الشباب
بسبب الطيش والضلال ، وذلك هو مصدق ما جاء في قول أبي نواس (30) :

وما سلس أهراً كذبي شيش

بصير بما ساس مستوثق

وما أحكم الرأي مثل امرئ

يقيس بما قد مضى ما بقي

وفي قوله أيضاً (31) ، مصوّراً حنادة الشباب ، والتغريط في حنب الله ، اللذين لا يُربّان ، عادة ، إلا في
مرحلة الشيّوخة الوعاظة المتصرّة :

الله درُّ الشيب من واعظ

وناصح لو سمع الناصح

ومن الطبيعي أن يرافق ذلك النَّسَمَ المتأجِّجُ الملوحي بأشعار ، أقل ما توصف به ، الرقة والعنوية ؛
فالمحاجَّان

>> حين يزهلون يصبح شعرهم قيثارة تدب بأوتار النام والخوف ، ويُمسون لهم شمائل تُنفح بالوداعة واللين << . (32)

ومن الأمثلة على ذلك الشاعر التائب آدم بن عبد العزيز . كان في بلاده <> أمره خليعاً ماجنا منهوكاً في الشّراب ، ثم نسأله بعدها عمر ، ومات على طريقة محمودة <<(33) .

يقول(34) وقد أفلح عن الخمر ، رابطاً برجاء الجزاء من قبل الله القادر:

ألا هل فتى عن شربها اليوم صابرٌ

لیجزریه یوما بذلک قادر (35)

نَزَعَتْ وَثُوَبَيْ مِنْ أَذْيَ الْلَّوْمِ طَاهِرٌ

وَثُمَّ شَاعِرٌ آخَرُ ، لَا تَقُومُ رُوحَانِيَّتِهِ عَلَى الْأَسْلَسِ الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ رُوحَانِيَّةُ آدَمَ الْمَذْكُورِ؛ إِنَّهُ مُحَمَّدَ بْنَ يَسِيرَ الرِّيَاضِيِّ . كَانَ <> شَاعِرًا ظَرِيفًا مِنْ شَعَرَاءِ الْمُحَدِّثِينَ . مُتَقَلِّلٌ ، لَمْ يَفْارِقْ الْبَصَرَةَ ، وَلَا وَفَدَ إِلَى خَلِيفَةِ وَلَا شَرِيفَ مُسْتَجِعًا ، وَلَا تَجاوزَ بَلَدَهُ وَصَحْبَتْهُ طَبْقَهُ ، وَكَانَ مَاجِنًا هَجَاجًا خَيْثَا << (36) .

وأساس روحانية هذا الشاعر ، في توبته ، هو الخوف من الموت الذي يرى فيه للنجاة الأخير . والويل لمن لم يرحمه الله . أنسد الرياشي في مجلس أبي محمد الراهد صاحب الفضيل بن عياض يوماً الآيات الثالثة : (37)

وَيْلٌ لِمَنْ لَمْ يَرْحَمْ اللَّهُ

ومن تكون النار مشوأة

واغفلتا في كل يوم مضي

يُذكّرني الموت وأنسأه

من ظال في الدنيا به عمره

و عاش فالموت قصاراً

کانہ قد قیل فی مجلس

محمد صار إلى ربّه

بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَإِيمَانَهُ

فَأَبْكَى جَمِيعَ مَنْ حَضَرَ .

وَمِنْ أَشْعَارِهِ الَّتِي نَلَمَسَ فِيهَا الصِّدْقَ وَالْإِخْلَاصَ مِنْ خُوفَهُ قَوْلَـ (38) :

عَجَابٌ مِّنْ رَضَايِّ بـ سـ

أَنَا مِنْهَا عَلَى شَفَاعَةِ فَرِيزـ

عَلَمًا لَا أَشْكُ أَنِّي إِلَى عـ دـ لـ دـ إِذَا مـ تـ أـ وـ عـذـابـ السـعـيرـ

كـلـمـا مـرـبـي عـلـى أـهـلـ نـادـ

كـتـ حـيـنـا بـحـمـ كـثـيرـ المـرـورـ

قـيلـ مـنـ ذـاـ عـلـى سـرـيرـ النـايـ

قـيلـ هـذـا بـحـمـدـ بـنـ يـسـيـرـ

أَمَّا أَبُو نُولِسُ فَهُوَ أَشْهَرُ التَّائِبِينَ بَعْدَ طَوْلِ مَحْوَنٍ ؛ وَمِرْدَ ذَلِكَ إِلَى مَكَانَتِهِ الشَّعُورِيَّةِ ، وَإِخْلَاصِهِ فِي
مَحْوَنِهِ وَزَهْدِهِ ؛ فَالرَّجُلُ ، كَمَا يُرَى أَحَدُ الْبَاحِثِينَ ، <> إِنَّمَا يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ أَصْحَابِ الْمَبَادِئِ ، فَهُوَ يَشْكُّ عَنِ إِخْلَاصِ
وَيَنْهَا عَنِ إِخْلَاصِ ، وَيَفْسُدُ عَنِ إِخْلَاصِ ، وَيَتُوبُ عَنِ إِخْلَاصِ ، فَهُوَ أَمْوَاجُ لِقَوْةِ الرُّوحِ ، وَحِيَاةِ الْوَجْدَانِ
<< (39) : أَلِيَّسْ هُوَ الْقَارِئُ (40) ؟

فَإِذَا نَرَعْتَ عَنِ الْغَوَایَةِ فَلَسِيْكِنْ

لِلَّهِ ذَاكَ التَّرْغُ لِلَّهِ سـ

وَبَعْدَ ، فَهَذِهِ لَحْةٌ مُوجِّزةٌ مِنْ شِعْرِ التَّدِينِ وَالزَّهْدِ . وَمِنْ الْجَدِيدِ ، الْآَنِ ، التَّفَرِيقِ بَيْنِ الزَّهْدِ
وَالتَّصُوفِ ؛ بِوَصْفِ الْأَوَّلِ سَابِقًا لِلثَّانِي ، ثُمَّ الْخَدِيثُ عَنِ الزَّهْدِ ، ثَانِيَةً ، بِوَصْفِهِ سَلْوَكًا جَسَنَهُ بَعْضُ رَوَادِ الْرَّاهِصَةِ
لِلتَّصُوفِ .

إِنَّ الزَّهْدَ ، كَمَا أَسْلَفْنَا ، هُوَ الْعَزُوفُ عَنِ الْمَنَازِلِ الدُّنْيَا وَمَعْهَا ، وَالْقَرْبُ مِنَ الْآخِرَةِ ، وَرِجَاءُ
نَعِيمِهَا . وَنَذِلَكَ كَانَ يُرَى بَعْضُ أَقْطَابِ التَّصُوفِ ، مُثْلُ الْخَلَاجِ (ت: 309ـ 41) ، أَنَّ الْعَزَّ بِالزَّهْدِ وَتَرْكِ
الْدُّنْيَا (42) :

عَلَيْكَ يَا نَفْسُ بـالـتـسـلـيـ

الـعـزـ بـالـزـهـدـ وـالـتـخلـ

ويفرق القديسي بين الرهد والتتصوف من حيث إن الصحابة والتابعين وتابعهم ، على الرغم من عكرفهم على العبادة ، وزهدهم في الدنيا ، فلا يمكن إطلاق اسم "الصوفية" عليهم ؛ بمحكم <> أن المسلمين بعد رسول الله (ص) لم يتسموا بأفضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله (ص) ؛ إذ لا فضيلة فرقها ، فقيل لهم الصحابة . ولما أدر كهم أهل العصر الثاني سُمي من صحب الصحابة التابعين . ورأوا ذلك أشرف سمة ، ثم قيل لهم أتباع التابعين .

ثم اختلف الناس وتبينت المراتب فقيل خواص الناس ، ممن لهم شدة عناية بأمر الدين ، الزهد والعبد ، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق ، فكل طريق أدعوا أن فيهم زهادا ، فانفرد خواص أهل السنة للراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التتصوف ، وانتشر هنا الاسم هؤلاء الأكابر قبل المأذن من الهجرة <> (43).

وفي معرض ما أخذ ابن الجوزي على أبي نعيم الأصفهاني ، في حليته ، ذكر <> إضافة التتصوف إلى كبار السنادات ، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن وشريح (44) وسفيان وشعبة ومالك الشافعي وأحمد ، وليس عند هؤلاء القوم خبر من التتصوف ؟ فإن قال قائل : إنما عنى به الرهد في الدنيا وهؤلاء زهاد — فنسأله : التتصوف منه布 معروف عند أصحابه لا يقتصر فيه على الرهد ، بل له صفات وأخلاق يعرفها أربابه <> (45).

فالفرق ، إذن ، بين الرهد والتتصوف ، مما يجعلنا في غنى عن إياته ، والإفاضة فيه . ولكن ما هي البنور الأولى لتراثات التتصوف ؟ ذلك ما نعرض له حيناً مع زارعها الحسن البصري (ت: 110هـ) الذي يُعدّ أهم شخصية زاهدة واعظة . ذلك أنه هو الذي مكّن الحروف من القلوب في حركة العبد في النصف الثاني من القرن الأول المحرري ؛ إنه <> قد غلب عليه الحروف حتى كان النار لم تُخلق إلا له وحده .. ، وكان ، رضي الله عنه ، إذا جلس كالأسير ، فإذا تكلم بتكلم كلام رجل قد أمر به إلى النار <> (46).

ويعكس ذلك في نفوس الناس ، وبلغ الحروف منهم مبلغاً كبيراً ؛ حتى قال سفيان الثوري ، فيما بعد ، <> ما أطاق أحد العبادة ولا قوي عليها إلا بشدة الحروف <> (47).

وقد أراد الحسن البصري أن يضع مجموعة من القواعد التنظيمية للتسلك والعبد ؛ نقرأ فيها البنور الأولى لنمط حديث في الحياة الروحية ؛ يتبدى ذلك في بعض أقواله مثل :

<> وددت أن أكلت أكلة تصير في جوفي مثل الأجرة . فإنه بلغنا أنها تبقى في الماء ثلاثة سنة <>

- <> إذا أراد الله بعد خيراً في الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد <>

- <> إذا أراد الله بعد خيراً أمات عياله ، وخلأه للعبادة <> (48).

فترعات التصوف ، بحثنا ، زارع بنورها ، هو الحسن البصري ؛ لأنّه >> هو الذي وضع علم القلوب الذي ثنا ، بعد ذلك ، على أيدي غيره من الصوفية << (49) .

هذا العلم هو الذي بدأ يميز طائفة العباد في الظهور ، ويتحذّل لها بعض الأسماء ، منها اسم " القراء " (50) الذين كان لهم مراكز خاصة بهم أهمها البصرة .

وبعد أن كان الزهد ، في القرن الأول ، انتصاراً عن متع الدنيا وزخرفها ، صار له مدلول آخر في القرن الثاني ؛ يعني ظهارة النفس ، ونقاء القلب وصفاته ، والإخلاص لله . ومن ثم حلّت الطقوس التعبدية المرتبة الثانية بعد أن كاتفني المرتبة الأولى .

ييد أن هذه الظهارة ، وهذا النقاء ، لا يتمان إلا بالعبادة ، ورياضة النفس وكماليتها ، وكفها عن أهوائها بالخلوة وشساعة الصوم ، وقلة الطعام ، وما إلى ذلك من كبح لحماتها ، وكسر لرغباتها .

يقول مالك بن دينار (51) : >> الناس يقولون : مالك بن دينار زاهد . إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها << (52) .

وكان من مظاهر الزهد في القرن الثاني أيضاً ، أن ليس كثيراً من الناس الزهاد المسوح ، ومشوا في الأرض سائحين >> كأنهم يفتشون عن حاجة فلا يجدونها أو كأن نزعة النفس اللاهوتية الفلسفية المخاثرة للتوبة قد وجدت دوافعها في هذه الحالات الطويلة العديدة التي تكاد لا تنتهي << (53) .

وممّا شغل الزهاد به ، في هذا القرن ، الإقامة في التغور ، تطوعاً وإثارة ، بغية الترويض . وكل هذا طريقاً إلى نشوء فكرة الربط لدى الصوفية المتأخرة .

على أن من القواعد الحامدة التي اتبّعها الزهد في هذا القرن أيضاً ، قاعدة الترك ——— (54) .

وقد تنافس فيه الزهاد وتباروا ، حتى صار لكل واحد منهم فيه منه布 خاص به ؛ فشقّيق البلخي ، مثلاً ، كان له منهب

في التوكّل (55) ، وأبو نواس كنتك ، فها هو يبحث في إحدى زهدياته ، على القوى ، مصلحاً قوله بالتوكل (56) :

فعلى الله توکل

وبقواه تمسك

وثمة قاعدة أخرى هي الرضا الذي يُعدُّ نهاية التوكّل ، و >> باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح

إن هنا الحب تكلّم عنه جميع الصوفية ؛ <> لأن هذه الحال هي الفيصل بينهم ، وبين أهل الشريعة الذين يعبّلون الله طمعاً في الثواب ، ومحظوظاً من العقاب ، ولا يستقيم حال المتصوّف إلا إن خلص من دنياه وأخراه ، فلا يمكن له مأرب غير لقاء الحيي بـ <> (58).

ومن بوأكير ما تم في الشعر الصوفي ، ما كان يسمعه الجيد كثيراً من إنشاد أبي الحسن سري السقطي (59) خلدة الأئمّة (60).

وَلَا أَدْعِيَتِ الْحَبَّ قَالَتْ كَذَبَتْ

فما لي أرى الأعضاء منك كواسيـا

فما الحب حتى يلصق الظهر بالحشر

وتذبل حتى لا تحيط المنادي

وتشمل حتى لا يقى لك الـ **ـوى**

سوی مقلہ تکی بھا و ناجی

وقد سأّل السري الجينيَّ عن الحجَّة فقال له : >> قال قوم هي الموافقة . وقال قوم : هي الإثارة ،
وقال قوم : كذا وكذا . فأخذ السري جلةً ذراعه وملحّها فلم تتمُّ ، ثم قال : وعزّته لو قلت إن هذه الجلة بيست
علي هنا العظم من محنته لصقلقت >> (61) .

ومن بلية الشعر في الرقة والنحو قول محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي المعروف
بابن الكتاني ، أحد مشائخ محب الدين بن عربي (62) :

وَمَا أَبْقَى الْهُوَى وَالشَّوْقُ مِنْيٍ

سوی نفس تردد فی خیال

خفيت عن المنية أن تراني

ومن هنا بدأ التصوف في الترسخ ، من هنا يعرفه أربابه ، وخاصة بظهور الطرق الصوفية (63) التي تشرط جميعها «التخاذ الشيّخ ومعرفة النفس والجهاد أو المعاشرة»؛ ففي اللغة معناها المعاشرة ، وفي الشرع محاربة

ويعود تاريخ نشأة الطرق الصوفية وتكرّها، حسبما حلّده أحد النّارسيين (٦٥)، إلى القرنين الثالث والرابع.

يُسماً بـ(66) أن هذه الطرق نشأت بدأة من القرن الثالث إلى السابع ، ومن هنا تفرعَتْ .
ومهما يكن ، فإن أهتم عامل في نشأة الطرق الصوفية هو العامل الشفافي ؛ فقد شهد القرن الثالث تطوراً شفافياً
ملحوظاً ؛ إذ ظهرت فيه الترجمة من النقوافات الأخرى ، كالهندية والفارسية واليونانية ، بتشجيع من الخليفة المأمون (67)
أما عوامل اختلاف الطرق وتعديدها فلها أسباب ؛ منها اختلاف مشائخها في فهم النصوص الدينية ؛
وبخاصة القرآن الكريم ، والاختلاف في تنظيم المراسيم التعبدية ، وكذلك التباين في طرق ترويض النفس .. (68).

يقول نجوي بن معاذ (ت: 258هـ) معرضاً بعض المطرق : «إذا رأيت الرجل يعمل الصيامات فاعلم أنه على طريقة التغري ، وإذا رأيته يحدث بأيات الله فاعلم أنه على طريقة الأبدال (69) ، وإذا رأيته يحدث بألاء الله فاعلم أنه على طريقة المُحَمِّين ، وإذا رأيته عاكفاً على ذكر الله فاعلم أنه على طريقة العارفين <> (70) .

على أنه من نافلة القول التذكير بأن التصوف في المخزائر يمثل حلقة من حلقات التصوف في العالمين العربي والإسلامي ؟ ذلك أن الشعراء اعتنقوا ما جاء في شعر ابن الفارض من غزل صوفي ، وفي شعر ابن عربي من أفكار مثل وحدة الشهود ووحدة الوجود (71) ، وما إليها ..

وقد ظهر متصوفة جزائريون قبل عصر الأئمَّة وإبانه ، وبعده أثناء الاحتلال الفرنسي . وتركتوا جميعهم تراثاً صوفياً كبيراً ، شعراً ونثراً ، <<إلى درجة يمكن معها القول بأن العالم الذي لم يؤمن في التصوف أو الشاعر الذي لم ينشد فيه قصائد ، فصيحة أو عامية ، لا يتمتع بمحظة لدى العلماء أو بين الناس>> (72) .

وتشمل هذه المجموعة كثرة الطرق والزروايا الصوفية، وأهمها: الرحمانية، القادرية، الشاذلية، العيساوية، السنوسية، الدرقاوية، والشيشانية .. (73).

وقد تفرّعت عنها طرق أخرى حملت أسماء مؤسسيها ، وكان منها المغالي والمعدل : فمن الطرق التي لا تميل

إلى المبالغة والإفراط في الأوراد والطفوس ، نخص بالذكر الطريق————— السنوية (74) التي يقول عنها رفيق المسلمين

وَعِنْ مُؤْسِسٍ (75)

إصلاحه الدين الصحيح من زه

عن جذبة المتصوف السبّاح

كانت طريقة القيام ، فـ

نبوية للألاعة الأرض

ليست للروشة المريد وجذب

بالدف أو بالضرب أو بصير

وعلى أية حال ، فإن هناك نوعين من الروايات في الجزائر : >> فالتي ظهرت في الشرق الجزائري كالرحمانية مثلا ، كان أصحابها يُدعون السنة في أقوالهم وأفعالهم .. أما التي ظهرت في الغرب الجزائري ، فإن أفكارها الصوفية وتقاليدها تتجنح للملائكة في الطقوس والأوراد ، وفي خلق نوميس فيها غموض وإيهام . وكان المدف هو إضفاء صفة الرهبة على مشارب هذه الطرق لسب أو لآخر >> (76).

>> عبارة عن زهد وتقشف ؟ خاصة في القرنين الأولين للهجرة . أما الثانية فكانت تقليداً أو اقتضاء لها . ولكن المرحلة الثالثة كانت أوغل في الصوف المخلص منها إلى الرهـد . وفي المرحلة الرابعة ظهرت "الطرق" الصوفية ، وتبلورت اتجاهاتها وطقوسها الخاصة منذ القرن الخامس الهجري . ثم جاءت المرحلة الأخيرة التي استمرت حتى العصر الحديث ، وهي التي سادت فيها المبالغة في "السطح" ، وتفقدت فيها طقوس المتصوفة ، وكثير من يدعى الكرامات ، وأمتلأ بالمخربين ، وغُزِّت فكرة "وحدة الوجود" "البيات الصوفية" <<77>> .
الهوامش :

¹ ابن ربه : العقد الفريد ، ج 3 ، تحقيق : محمد سعيد العريان . مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ط 2: 115 ص 1953.

² ابن رشيق : العمدة ، ج 1 ، حقه ، وفصله ، وعلق حواشيه : محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ، لبنان ، ط5: 1981 ، ص35.

³ ديوان الفرزدق ، مج 2 . دار بيروت للطباعة والنشر: 1980 ، ص ص 212 ، 213 .

⁴ أبو نعيم الأصفهاني : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ج 5 . دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط2 : 1967 ، ص 318 .

5 العقد الفريد : 126/3 .

6 حلية الأولياء : 373، 374

7 الجاحظ : البيان والتبيين ، ج 3

7 الجاحظ : البيان والتبيين ، ج 3 ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون . مطبعة لجنة التأليف والنشر ، ط 2 : 1960 ، ص 146 .

8 نفسم : ص 202 .

⁹ وفي : الشعر والشعراء لابن قتيبة / ط3: 1987 ، ص407 : علمت

١٠ نفسه ، ص ٤٠٧ : على الأكافيين معدلات

- 11 د. شوقي ضيف : التطور والتجدد في الشعر الأموي . لجنة التأليف والترجمة والنشر : 1952 ، ص 45 .
- 12 حلية الأولياء : 384/2 .
- 13 ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج 1 ، ط 2: 1923 ، ص 32 .
- 14 عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي ؛ نشاته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري . مطبعة الأنجلو المصرية: 1954 ، ص 173 .
- 15 حلية الأولياء : 235/8 .
- 16 نفسه : 05/7 . والبيت مقتبس ، فيما يبدو ، من قوله تعالى : " أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالأخرة ، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينتصرون " .
 (من سورة البقرة : 86) .
- 17 ابن الجوزي : صفة الصفوة ، ج 2 . مطبعة النهضة الجديدة بالقاهرة ، ط 1: 1970 ، ص 360 .
- 18 الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، ج 10 . دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ت. ، ص 166 .
- 19 حلية الأولياء : 196/3 .
- 20 نفسه : 170/8 .
- 21 نفسه .
- 22 " حبيبي " : كلمة كانت متداولة بين لزهاد منذ القرن الثاني .
- 23 د. عبد الرحمن بدوي : شهيدة العشق الإلهي . نشر مكتبة النهضة ، ص 117 .
- 24 لأن العارف ينظر بالله عز وجل ، بينما المؤمن ينظر بنور الله .
- (انظر : د. عبد المنعم الحفني ، معجم مصطلحات الصوفية . دار المسيرة ، بيروت ، ط 1: 1980 ، ص 181)
- 25 صفة الصفوة : 57/4 .
- 26 طالع حديثا عنه في : البيان والتبيين : 230/2 ، 231 .
- 27 صفة الصفوة : 517/2 .
- 28 نفسه : ص ص 517 ، 518 .
- 29 نفسه : 13/4 .
- 30 ديوان أبي نواس : دار صادر ، لبنان ، د.ت. ، ص 176 .
- 31 نفسه : ص 618 .
- 32 د. ركي مبارك : التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، ج 1 . منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، د.ت. ، ص 75 .
- 33 أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ، مجلد 15 . دار الثقافة ، لبنان ، ط 6: 1983 ، ص 227 .
- 34 نفسه : 230 .
- 35 وفي معجم الأدباء ، ج 7 ، ط 1: 1925 ، ص 303 : ليجزيه عن صبره الغد القادر .
- 36 نفسه : 18/14 .
- 37 نفسه : 38/14 .
- 38 البيان والتبيين : 179/3 .
- 39 التصوف الإسلامي : 76/1 .

40 ديوان أبي نواس : ص 105 .

41 - هو الحسين بن منصور ، ويكتئي أبا مغيث ، وقيل : أبا عبد الله . نشا بواسط ، وقيل بستر .
وقدم بغداد فخالط الصوفية ، وصاحب من أقطابهم الجنيد ، وأبا الحسين التوري ، وعمر المكي .
(انظر : تاريخ بغداد 112/8)

- وذكر عنه ابن النديم ، وهو من خصومه ، أنه <> كان رجلاً محتالاً مشعبداً ، يتعاطى مذاهب
الصوفية ، يتحلى ألفاظهم ، ويدعى كل علم ، وكان صفراً من ذلك ..
وكان جاهلاً مقداماً متدهوراً جسورة على السلاطين ، مرتكباً للعظائم . يروم إقلاع الدول ، ويدعى
عند أصحابه الإلهية ، ويقول بالحلول ، ويظهر مذاهب الشيعة للملوك ، ومذاهب
الصوفيـة للعامة << .

(الفهرست : تحقيق رضا - تجدد ، د.ط. ، د.ت. ، ص 241 .)

لمزيد من التفاصيل عن حياته ، يُنظر :

- سامي خشبة : "الحلاج المسلم المتميّز بين السيف والكلمات" ، الأدب ، ع 10، س 17: تشرين
الأول 1969 ، ص 22-27 .

- أكرم فاضل : "حياة الحلاج بعد موته" ، المورد ، مج 1 ، ع 3 ، 4: 1972 ، ص 55-69 .

- عرفات عبد الحميد : "الحسين بن منصور الحلاج ونظريّة الحلول" ، الأدب
والتربيـة (الكويت) ، ع 3 ، 4: حزيران-كانون الأول 1973 ، ص 303-313 .

42 ديوان الحلاج : نشر لويس ماسينيون ، الجريدة الآسيوية (J.A.) . المطبعة الوطنية بباريس :
جانفي - مارس 1931 ، ص 81 .

43 القشيري : الرسالة . دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان: 1957 ، ص 7 ، 8 .

44 هو شريح بن الحارث الكندي : من أشهر القضاة الفقهاء (ت: 78 هـ)

45 صفة الصفوـة : ج 1 . مطبعة الأصيل ، حلب ، ط 1: 1969 ، ص 25 .

46 الشعراـني : الطبقات الكبرى ، ج 1 . شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط 1:
1954 ، ص 29 .

47 حلية الأولياء : 362/6 .

48 الطبقات الكبرى ، ج 1 ، ص 29 ، 30 .

49 التصوف في الشعر العربي .. : ص 39 .

50 طالع حديثاً عنهم في حلية الأولياء : 391، 390/01، 391، 390/05 و 305/05 .

51 نفسه : 389-357/02 .

52 نفسه : 257/05 .

53 د. جبور عبد النور : نظرات في فلسفة العرب . بيروت ، ط 1: 1945 ، ص 231 .

54 >> قال سهل بن عبد الله : أول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عزّ وجلّ كالميـت بين
يدي الغـاسل يقلـبه كـيف شـاء ، لا يـكون له حرـكة ولا تـدبر . وـقال حـمدون : التـوكل
هو الاعـتمـام بالـله تـعـالـى .. شـرـط التـوـكـل ما قـالـه أبو تـرـابـ النـخـشـيـ ، وـهو طـرحـ الـبـدنـ فيـ الـعـبـودـيـةـ ،
وـتـعـلـقـ الـقـلـبـ بـالـرـبـوبـيـةـ وـالـطـمـانـيـةـ إـلـىـ الـكـفـائـةـ ، فـإـنـ أـعـطـيـ شـكـرـ ، وـإـنـ مـنـعـ صـبـرـ << . (الرـسـالـةـ
الـقـشـيرـيـةـ : ص 76)

55 حلية الأولياء : 283/10 .

56 البيان والتبيـن : 178/03 .

- 57 حلية الأولياء : 156/6 .
- 58 التصوف الإسلامي .. : 244/1 .
- 59 خال الجنيد وأستاذه . صحب معروفا الكرخي وتتلذذ عليه . وهو أول من تكلم ببغداد عن التوحيد وحقائق الأحوال . كان أوحد زمانه ورعا وعلم بالسنة والتوحيد . ثُوقي ، على خلاف ، أعوام : 251هـ ، 253هـ ، 258هـ . (انظر : - السلمي ، طبقات الصوفية ، تحقيق : نور الدين شريبة / ط. القاهرة 1953 ، ص48 . - الرسالة الفشيرية : ص10 . - الطبقات الكبرى : 63/1 . - تاريخ بغداد : 89/6 .)
- 60 ابن العماد الحنبلي : شدّرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج2 . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ت. ، ص127 .
- 61 ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج 2 ، تحقيق : محمد محيي الدين / طبعة القاهرة 1948 ، ص 102 .
- 62 عبد الله كثون : "أدب الفقهاء" ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج 2 ، مج 41 : أبريل 1966 ، ص250 .
- 63 الذي يعد تأسيسها <> تحولا هاما في التصوف المغربي ، وفي دوره الاجتماعي ، وكانت أول لها طريقاً أبي عبد الله محمد الجزوني (م. 1465/869) .. <> .
- (د. عبد الحميد حاجيات : "سيدي الهواري شخصيته وتصوفه" ، مجلة الثقافة ، ع 88 ، س15 : يوليو - أغسطس 1985 ، ص87 .)
- 64 أحمد توفيق عياد : التصوف الإسلامي : تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ، ج 2 . مكتبة الأنجلوسaxon المصرية ، القاهرة 1970 ، ص276 .
- 65 انظر : د. محمد مصطفى حلمي ، الحياة الروحية في الإسلام ، ص ص111، 112 .
- 66 انظر : د. مقداد يالجن ، فلسفة الحياة الروحية ؛ منابعها ومشاركاتها ونشأتها ونشأة التصوف والطرق الصوفية . دار الشروق ، ط1: 1985 ، ص94 .
- 67 نفسه : ص96 .
- نفسه : ص ص99-105 . 68
- 69 <> هم سبعة رجال ، فمن سافر عن موضعه وترك جسداً على صورته ، حيا ب حياته ، ظاهراً بأعمال أصله ، بحث لا يعرف أحد أنه فقد ، فذلك هو البديل لا غير <> .
- (معجم مصطلحات الصوفية : ص32)
- 70 نيكلسون : في التصوف الإسلامي وتاريخه ؛ ترجمة : د. أبو العلا عفيفي ، طبعة القاهرة 1956 ، ص20 .
- فيما يلي عرض لأهم الطرق الصوفية :
1. الطريقة المحاسبية : نسبة إلى الحارث المحاسبي (ت:243هـ) الذي يعد <> أول من فلسف الحياة الروحية في إطار الإسلام ، ووضع منهاجاً للتصوف السنّي ، مدعماً منهجه بالقرآن والسنّة <> . (د. يالجن : فلسفة الحياة الروحية ، ص110 .) الطريقة القادرية : مؤسسها هو عبد القادر الجيلاني (470-561هـ) . كان عالماً نحريراً في علوم شتى ؛ كالتفسير والحديث والفقه والأصول

- والنحو .. أما تصوفه فسي **<>** مع ميل إلى التفسير على مذهب أهل الباطن **<>**). (أحمد توفيق عياد : التصوف الإسلامي ، ج 2 ، ص 279 .
- 2-الطريقة الأكبرية : نسبة إلى الشيخ الأكبر محبي الدين بن عربي (560-638هـ) . يُعرف الحاتمي وبابن عربي ، دون ألف ولا م ، تميزا له عن القاضي أبي بكر بن العربي صاحب "أحكام القرآن" في التفسير .
- كما يُعد ابن عربي من المتصوفة المتقسفين ، ومن الذين تبنوا فكرة وحدة الوجود والحقيقة المحمدية .
- وتحتفي طریقته ، أيضا ، بقولها بنظرية وحدة الأديان ؛ بمعنى أن الأديان كلها الله ، لا فرق بين دین ودين .
- ومن هنا انبثقت لديه نظرية أخرى هي نظرية وحدة الوجود ، المشار إليها ، انطلاقا من أن ما في الكون من حقائق ، إنما هي تجليات للحق .
- (انظر : الحياة الروحية في الإسلام ، ص 146 .)
- 3-الطريقة الشاذلية : صاحبها هو أبو الحسن الشاذلي (ت: 656هـ) . أصله من شاذلة بتونس . ومن أشهر تلامذته الشيخ أبو العباس المرسي (ت: 686هـ) الذي خلفه في رئاسة الطريقة بعد وفاته . وبعده ابن عطاء الله السكندرى .
- وتقوم طریقته على <> تقوی الله في السر والعلانية ، واتباع السنة في الأقوال والأفعال ، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار ، والرضى عن الله في القليل والكثير ، والرجوع إلى الله في السراء والضراء <>. (فلسفه الحياة الروحية : ص 119 .)
4. الطريقة التيجانية: طريقة جزائرية مراكشية . مؤسسها هو الشيخ أحمد التيجاني (ت: 1810م) .
- (انظر : دائرة المعارف الإسلامية - مادة: الطريقة -)
- <> وهي منتشرة، بصفة خاصة، في المغرب وتشاد والسودان. ولها أتباع في مصر وتركيا <> .
- (فلسفه الحياة الروحية : ص 125 .)
- 71 تعود ، في نشأتها ، إلى <> الفكر القديم شرقياً كان أو غربياً . فعرفت لها صور في "البراهيمية والغنوصية" ، كما بدت لها مظاهر في الفلسفة اليونانية ، وأوضحت ما تكون لدى الرواقين ، والأفلاطونيين الذين شاءوا أن يرددوا الكونالي أصل إلى .. <> .
- (من مقال إبراهيم مذكر : "دراسة مقارنة بين اسبينيوزا وابن عربي فيما يخص وحدة الوجود" ، ضمن " الكتاب التذكاري لمحبي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة (نخبة من الدارسين) . دار الكتاب العربي ، القاهرة 1969 ، ص 368 وما بعدها .)
- 72 الشعر الديني الجزائري الحديث : ص 238 .
- 73 لمزيد من التفاصيل حول هذه الطرق و مؤسسها ، يطالع : " كتاب الجزائر " لأحمد توفيق المدنى ، ص 352 وما بعدها .
- 74 طالع حديثاً عنها وعن مؤسسها في : فلسفه الحياة الروحية .. ، ص 126 .
- 75 محمد الصادق عفيفي : الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث . دار الكشاف ، بيروت ط 1: 1969 ، ص 109 .
- 76 الشعر الديني الجزائري الحديث : ص 240 .
- 77 نفسه : ص ص 237 ، 238 .
- لمزيد من التفاصيل حول هذه المراحل ، ينظر: التصوف في الإسلام لعمر فروخ ، ص ص 56-86 .